الرافعي

بعـــد عام

للأستاذ محمد سعيد العريان

في صباح الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ نُعي المرحوم مصطفى صادق الرافعي إلى أدباء العربية ، فجأة وبغير إنذار ؛ فسكت القارئ وتلفت السامع ، وتغشى السامرين من أهل الأدب سكونٌ ووحشة وانقباض

وطالت فترة الصمت ، والسامرون في غشيتهم لا ينطقون ، إلا نظرات شاردة ، وخواطر تصطرع وتموج ، وذكريات تنبعث محرقة لاذعة ، تذكّر بما كان وتنبّه إلى ما ينبغي أن يكون ...

وهمس هامس : « يرحمه الله ! لقد كان رجلاً للدين وللعربية هيهات أن تجد بديلا منه أو ينقضي زمان من عمر التاريخ ! »

ثم عاد الصمت ، وعاد السكون ، إلا النظرات الشاردة ، والخواطر المائجة ، والذكريات والأماني ...

وهتف هاتف في جلال الصمت وفي وحشة السكون : « إن للفقيد لحقاً على اللغة ، وحقاً على المسلمين ، لا يجزئ فيهما أن تقول : يرحمه الله ! »

وتدانت الرءوس ، وتجاوبت النظرات ، وانثالت الأفكار ، وتزاحمت الأماني ؛ ثم لم يلبث أن عاد الصمت ، وعم السكون !

ثم عاد القارئ يقرأ ، وأنصت السامع يسمع ، وانتحى اثنان يداولان الرأي في شأن من شئون الأدب ، وتماسك اثنان يفاضلان بين الجديد والقديم ؛ وغامت في سماء النَّدي غاشية ، وانعقدت على رءوس السامرين عجاجة ، وضج المكان كسالف عهده ، واختلطت الأصوات فما يبين صوت من صوت ، واشتغل كل بما هو فيه ...

وصاح صائح في نبرة اليائس المحزون : « ويحكم يابني عدنان! لقد شغلتكم دنياكم عن الوفاء ، وفتنتكم الحياة عن ذكر الموت ! لقد كان هنا إنسان منكم ، وإنه لأرفعكم صوتاً ، وأبلغكم بياناً ، وأبعدكم غاية ومدى ؛ فهلا ذكره منكم إنسان ... »

وبرقت العيون ، واختلجت الشفاه ، واهتزت الرءوس ، وانبعث صوت السامرين يحوقل ويسترجع في همس خافت ، وقال قائلهم : « يرحمه الله ! لقد كان ... ! »

* * *

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل وفاء العربية للراحلين من أدبائها : يتهاوَوْن من الذروة إلى بطن الوادي فرداً فردا ، وإخوانهم على الطريق ينظرون إليهم في بلادة وصمت ؛ لا تشيّعهم منهم قدم ، ولا تتبعهم عين باكية ، ولا يذكرهم منهم إنسان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل تراث الأديب في العربية لبنيه وأهله ، هو حسبهم من الطعام والشراب والثياب وتكاليف الحياة ، وفيه العِوَض كل العِوَض من عائلهم الذي طواه الموت بين الصفائح والتراب !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا هو الخلود الذي ضمنته العربية لمن يموت من أدبائها وهو في ميدان الجهاد يكافح الفقر والمرض وشئون العيال ، ويبذل نفسه لينشيء أدباً يسمو بضمير الأمة ، ويشرع لها طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل ما تستطيع العربية من كلمات العزاء ، وكل ما يملكه أدباء العربية من أساليب المواساة ، وكل ما يقدر عليه ناطق يبين ، وصديق يتحبّب ، وحبيب يشعر أن عليه حقّاً لمن يموت من أهل البيان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

صوت ما له صدى ! وتراث ليس فيه غناء ، وطعام لا يهنأ ولا يمرأ ، وخلود لا يدوم إلى غد ، وعزاء لا يخفف دمعة ولا يخفف لوعة ولا ينفذ إلى قلب طفل سلبه الموتُ أباه وسعادة دنياه !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

... خلّوا عنكم أيها الأدباء الكبار ، وأيها الشعراء العظام ، وأيها الخطباء المصاقع ؛ خلّوا عنكم عناءها ، سيرحمه الله وإن لم تقولوها ؛ سيرحمه بما جاهد ، وبما بذل ، وبما عانى ، وبما تحمّل من جهد التضحية ومشقة الحرمان ؛ وسيرحمه ثانيةً بما لقي من

العقوق وكان بَرًّا ، وبما اتى من الغدر وكان وفيًّا ، وبما تويل من إنكار الجميل وكان من أهل الجميل ؛ وسيرحمه بدموع هؤلاء اليتامى ، وبأنّات هؤلاء الأيامى ، وبدعوات كثير من أهل الإيمان وَفَوْا له ماوسعهم الوفاء !

* * *

مضى عام منذ مات الرافعى ، فهل سأل أحدٌ : كم خلّف وكم ترك ؟

سأحدثكم وإن لم تطلبوها إلىّ ... ...

أما المال فلا سبيد ولا لبد ، وأما الأدب فثروة للرواة ومحزنة للولد ، وأما العيال ... واحزنا لو كان يجدى الحزن !

هذا « سامى » كبيرهم فى بعثة الجامعة بأمريكا ما يزال بينه وبين الغاية خطوة ؛ وهذه « سعدية » الصغيرة تلثغ فى الراء وتضم شفتيها على الباء ؛ وبينهما ثمانية يقوم على شئونهم « محمد » الله لهذا الشاب العائل ؛ لم يكد ينعم بقرب الأهل بعد فراق سبع سنين فى فرنسا لدراسة الطب ، حتى كان عليه عبء الأسرة كله ، فكأنما كان هو فى تلك الغربة وديعةً إلى أجل ، وذخيرة إلى ميعاد ؛ وعاجلته تبعات الحياة وما يزال فى باكر الشباب !

والحكومة .. ؟ خلّى عنك يا وزارة الحقانية ، خلّى عنك يا وزارة المعارف ، خلّ عنك يا وزير المالية ... الله أكرم !

لقد تصرّم من عمر الرافعى فى خدمة الحكومة ثمان وثلاثون سنة ، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين ؛ فأى مكافأة وأى جزاء ؟ بضعة عشر جنيهاً فى كل شهر ، تأبى الحكومة إلا أن يكون لها فيها ميراث ...

إنه الرافعى ، إنه الرجل الذى كان اسمه فى مقدمة الأسماء المصرية التى تؤكد زعامة مصر للأمم العربية ، وترفع اسمها وتبنى مجدها الممتاز ، وتسن طرائقها التى يحتذيها الأدباء فى العالم العربى . إنه هو ... ولكنها هى مصر ... !

وكتب رئيس الرافعى فى وزارة الحقانية كتاباً غداة متعاه إلى وزارة المالية ، يصف لها من حال الرافعى ومن خبره ، ويقترح ... يقترح أن تنزل الحكومة عن نصيبها من الميراث فى (معاش) الرافعى لأولاده ... ولكن وزير المالية يأبى ... ولكن الله أكرم ... !

« يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

ذلك كان جواب الحكومة المصرية ... !

* * *

لقد مضى عام ، فهل تذاكر أدباء العربية فيما عليهم للرافعى ؟ وهل ذكرت الأمة والحكومة ماعليهما من واجب الوفاء للرافعى ؟

لقد تداعى الأدباء إلى ميعاد يحتفلون فيه بتأبين الرافعى ، وجاء الميعاد وتخلّف المدعوّ والداعى ؛ وترادف ميعاد وميعاد وميعاد ، ومضى عام ، وعلى مكتب كل أديب دعوةٌ لتأبين الرافعى ، وفى ذيل كل دعوة جواب المدعو بخطه أو بلسانه : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

وعند دكاكين الورّاقين أسئلة عن كتب الرافعى ، ولكن السوق ليس فيه كتاب من كتب الرافعى ؛ وقال قائل : « أعيدوا طبع الديوان ، أعيدوا طبع إعجاز القرآن ، أعيدوا .. أعيدوا .. »

وقال الطابع والناشر والورّاق : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

وعلى مكتب الرافعى كتبٌ لم تطبع ، وقصاصات لم ترتّب ، وثمرة عقل خلّاق كان يجهد جهده ليضيف كل يوم إلى العربية ثروة جديدة وفكراً جديداً . وقلنا : « يا وزارة المعارف ، هذه كتب إن لم تخرج للناس سبق إليها العثّ والفيران فيضيع على العربية كنز مالها منه عوض ! » ولكن وزارة المعارف فى أحلامها الهنيئة لا تسمع ولا تجيب ، إلا همساً فى أمثال أنفاس النائم تُردّد قول الناس : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

* * *

وفى الأمة مع ذلك أدباء ، وفى الأمة كتاب وشعراء ، وفى الأمة ناشئة غافلة ما تزال ترجو الخلود فى الأدب ...

وفى الأمة عقول ناضجة فى أجسام مهزولة من الفقر والجوع ؛ وفى الأمة رءوس ممتلئة على أناسىّ تضطرب كل مضطرَب للبحث عن القوت

وفى الأمة ... وفى الأمة رءوس فارغة على أجسام تكاد تتمزق شبعاً وريا ؛ وفى الأمة ... وفى الأمة قلوب خاوية فى أناسىّ تتمرغ بين وسائد الدمقس وحشايا الحرير ...

وفى الأمة ... وفى الأمة مع ذلك من يتساءل مدهوشاً : « لماذا ... لماذا لا نجد فى الأمة العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء الغربيين ... ؟ »

يرحمك الله يا مصطفى ... ! بل يرحمك الله أيتها الأمة !

« شبرا »

محمد سعيد العريان